مقدمة عن الحداثة والتحديث 2022-10-10

الحداثة نقيض القدم، وتعني الجدة، والحداثة أول الأمر وابتداؤه، والحداثة كناية عن أول العمر وسن الشباب، والحديث الجديدُ من الأشياء، والحديث هو الخبر، وحوادث وأحداث الدهر نوائبه. كما أن للحداثة في الفكر الغربي أيضا مصطلحات ومفاهيم متداولة في فكر الحداثة، والتي لها استعمالاتها في اللغة العربية بتعددها وهي:

(Modernisme/Modernism) و(Modernité/Modernity (Modern/Moderne)
(Modernisation/Modernization)

غير أن ما يمكن ملاحظته أن هناك شبه تعارف على أن كلمة: **حديث** هي الترجمة العربية للمصطلح الغربي وأشباهه في اللغات الأوروبية. فكلمة حديث ،Moderne مشتقة من ظرف الزمان اللاتيني يعني تَوا. والتي عبرت عن الاعتراض على هو قديم والذي كان يميز العصور اليونانية والرومانية القديمة عندما ظهرت في القرن 14 الميلادي

لقد ظهر هذا المصطلح في أوله للتمييز أو الفصل بين فترتين زمنيتين جسدهما الصراع بين القديم والحديث مع تأكيد القطيعة مع الفترة الماضية بدخول عصر النهضة والتجديد، ثم تجاوزها إلى فترة المعاصرة والتي تعني ضمنا التحديث، "حيث أن الحداثة والمعاصرة توأمان يتجاذبان الفكر العلماني الحديث.

ليست الحداثة مفهوما سيسولوجيا ولا سياسيا ولا حتى تاريخيا. هي نمط في التحضر والتمدن تتعارض مع التقاليد، بمعنى آخر مع كل الثقافات السابقة التقليدية في مواجهة الاختلاف الجيوغرافي والرمزي، ولهذا فالحداثة تفرض نفسها كنمط على مبدأه الغرب ورغم هذا فهي تبقى فكرة غامضة تحاكم بصورة شاملة التطور التاريخي والتغير الذهني.

يمكن القول إن **مصطلح الحداثة** قد ظهر بصيغة صفة الحديث –الحداثة كاسم– كان متأخرا، حيث ما يفسر هذا الظهور المتأخر للفظ الحداثة خلو المعاجم من هذه اللفظة حتى بداية القرن

التاسع عشر، فطيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر لم يكن استخدام لفظ حديث موسَّعا ولم يظهر شرح وتفسير لمعنى الكلمة في المعاجم الفرنسية إلا باحتشام وباختصار شديد.

فالتحديث مصطلح يعني التقدم والحركة، والتحديث ضد الثبات والجمود كما يحمل بين طياته معنى التغير والجدة والنسبية. وقد مارس الغرب ظاهرة التحديث ابتداءً بعصر النهضة، فحركة الإصلاح الديني، في عصر التنوير، ونمو الرأسمالية والثورتين الصناعية والسياسية، والاعتقاد بالمنهج العلمي وقوة العقل، وقد تجاوز الغرب هذه المرحلة إلى مرحلة ما بعد الحداثة. فالحداثة هي حركة تجديدية في حقول الإنتاج والأفكار وأنماط الحياة والحكم والفن خرجت عن جمود سنوات العصور الوسطى الطويلة، وعليه فهي تلحق عموما الحقبة التي تلت الخروج من العصر الوسيط، أي منذ القرن السادس عشر

والحداثة هي عبارة عن مجموعة من التغيرات التي تشهدها المجتمعات , لكنها ليست بالضرورة ان تعد مجتمعات حداثوية فالتحديث هو سياق التحول الاقتصادي والتكنلوجي في حين ان الحداثة هي مجموعة العناصر والعلاقات التي يتألف منها الكيان الحضاري، فالحداثة هي وعي ونموذجا فكريا.

اما التحديث هو نظرية تؤسس صيغا وتقديرا معيارياً تنظر من خلالها الى ما ينبغي ان تكون عليه الحداثة وبين الحداثة في حد ذاتها بوصفها نموذجا ارشاديا.

أصول الحداثة:

متى بدأت الحداثة؟ كيف؟ وأين؟ أسئلة اختلف حولها مؤرخو الحداثة، فبعضهم أرجع بداية الحداثة إلى العهد الروماني، واليوناني، وذلك مع بداية الأفكار المثالية، والمادية، وقالوا هناك ظهرت ملامح الحداثة وبدأت تظهر وتختفي إلى أن ظهرت بصورها الفلسفية المتكاملة في القرن التاسع عشر، واستكملت صورها النهائية مع بداية القرن العشرين، يقول محمد بنيس: "تعد الحداثة غربية التصور والتحقق، لفعلها صفة الشمول بدءا من أبسط المنتوجات حتى سمات الحساسية، فإن الغرب لم يتوقف، منذ اللحظات الأولى يحاكمها أو يبدلها".

وبعضهم يعتبر أن بداية الحداثة في فرنسا، انطلقت فترة الحداثة – والحق يقال– من رحم الثورة الفرنسية التي ركزت بالرغم من فترتها الدموية على سيادة العقل والتعقل والعقلانية واللوغوس، وهي مقولات انتشرت في عصر الأنوار الأوروبي، وأنسلت مجموعة من المفاهيم (إلغاء الحكم السياسي المطلق، وإعلان حقوق الإنسان، وحرية الفرد، وفصل الدين عن الدولة (العلمانية أو الدنيوية)، والنهضة والإصلاح، وترسيخ دولة القانون، إطلاق ا تمع المدني، دمقرطة الثقافة والعلوم، والمجتمع وترسيخ روح المواطنة، مع ما تحمل من واجبات وحقوق، وتركيز على العقد الاجتماعي– الذي نادى به جان جاك رسو خاصة–تحديث ا تمع، وتنويره، وإقامة توازن بين الروح والجسد ومنه فإن أصل الحداثة كما تشير المصادر الغربية، الى حركة نقدية مناهضة لتقاليد الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والإقطاع، ونشأت الحركة بشكل متزامن وعفوي في كل من إيطاليا، وفرنسا، وألمانيا، وبريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، انطلاقا من وقائع وأحداث– من ثورات وحروب أو اكتشافات وانتصارات– حملت الدلالة التاريخية للحداثة وكانت المعيار في تحديد صفة الحديث وكما نشأت هذه الحركة في ضوء مجموعة من المعطيات التاريخية، فإنها كانت أيضا وليدة معطيات وخلفيات فلسفية منذ العهد الروماني.

لقد مزقت الحداثة العالم المقدس الذي كان إلهيا وطبيعيا في آن، وكان مخلوقا وشفافا أمام العقل– وأطاحت الحداثة بوحدة عالم خلقته الإرادة الإلهية أو العقل أو التاريخ وحلت محله العقلنة وتحديد الذات حيث: لا حداثة بلا ترشيد بلا تشكل للذات في العالم، ذاتا تشعر مسؤولة أمام نفسها وأمام المجتمع إذن، وفق مبدأ الذاتية أو الفردانية، وبالتركيز على فكر مركزية الإنسان وصولا إلى الأنا الحرة والعقلانية، قامت معالم الحداثة الفلسفية؛ فنجد أنه على عتبة الحداثة تربع قول ديكارت الشهير: ((أنا أفكر، أنا موجود)) مركزا فكره على "الأنا" أو "الذات" والعقل، لأن الحداثة ترتبط بالعقلانية في شكل تلازم واضح، كما تقترن في نمط تكوينها وفي نمط عملها بالعقل أساسا كما يتصور ماكس فيبر وهو أيضا ما يؤكده "آلان تورين" في أكثر من موضع أن الحداثة هي عقلنة للوصول إلى كينونة الإنسان ووعيه، ثم إكساب تلك الأنا صفة الحرية، لكن هذه المرة مع كانط الذي رأى أنّ كُنة الأنا الحقيقي ليس

هو: ((أنا أفكر)) وإنما هو ((أنا أفعل)) و((أنا أشرع لنفسي))، وذلك بما ((أنا كائن حر)) ثم جاء نيتشه فأكسب الأنا القوة، وصيَّر الكون بأكمله ذاتا طالبة للقوة انطلاقا من فكره الفلسفي اللاهوتي القائم على ((موت الإله)) ليسلمَ بذلك الإرادة والقوة كلها للإنسان، ويصبح هو بدوره ((فيلسوف الإنسان الأعلى)) .

لتتحد الحداثة الفلسفية بالعقلانية والذاتية؛ فهي تبدأ مع انبثاق الذاتية، أي مع الاعتقاد بأنه انطلاقا من الإنسان فقط وللإنسان يمكن أن يكون في العالم معنى وحقيقة. إن الحداثة التي عايشتها أوروبا قرنين من الزمان لم تتكون بين يوم وليلة، ذلك لأنها حالة حضارية جدلية صنعتها ظروف موضوعية متفاعلة مع الشرط الذاتي (المفكر)، وبالنسبة للأولى فلقد صنعتها المعايشة التاريخية لمراحل النهضة والإصلاح الديني، فالتنوير فالعقلاني

كما نجد من جهة أخرى مبدأ آخر يتقاطع مع مبادئ الحداثة السابقة المتمثلة في الذاتية والتنوير والعقلانية نجد مبدأ العلمانية التي هي جزء من النزعة الإنسانية، لأنها نزعة دنيوية في تدبير العالم من داخله دون تدخل من الخارج انطلاقا من فلسفة أن العالم مكتف بذاته، تدبره الأسباب المخلوقة في ظواهره، وقواه، وطبيعته، دونما حاجة إلى رعاية إلهية أو تدبير شرعي نازل مما وراء الطبيعة.

فالعلمانية: هي جعل المرجعية في تدبير العالم إنسانية خالصة" باعتبار أن الإنسان هو المرجعية الوحيدة لإدارة دنياه والسيطرة عليها بناء على ما ذكر، فإن هيجل الفيلسوف الألماني يعتبر أيضا صاحب المبادرة الأولى في التعبير عن الحداثة فلسفيا، لقد أصبحت الحداثة مع هيجل موضوعا أساسيا من مواضيع الفلسفة بحيث نلمس تجاوبا في حدود مضمون الحداثة فلسفيا فمحاولة هيجل في تحديد ماهية الحداثة فلسفيا تتمثل في جانبها الذاتي ببُعديه الحرية والفكر، أي في تأكيد هذه المحاولة على النزعة الفردية والاستقلالية في الفعل والحق في النقد وإعمال العقل وبهذا يظهر.

نشأة الفن الحديث

الفنون الحديثة أو الفن الحديث هو مصطلح عام استخدم للدلالة على الإنتاج الفني منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى سبعينيات القرن العشرين لتحديد تاريخ نشأة الفن الحديث سنعرض ما كتب "الآن بونيس": في ربيع عام 1867م، قَدَّمَ شاب يدعى إدوار مانيه (1883م–1832م) صورة إلى محكمي "الصالون" في باريس، فرُفِضَتْ مثل مئات الصور غيرها. عندها رفع الفنانون المرفوضون الناقمون التماسًا إلى الإمبراطور نابوليون الثالث، الذي رجح أن يكون هناك شيء من الظلم في قرارات المحكمين وسمح بتنظيم معرض خاص بالرسوم والمنحوتات المرفوضة؛ أطلق عليه "صالون المرفوضات" الذي كان نقطة تحول في تاريخ الفن وتحدد بفضله أنسب موعد لبدء تاريخ الفن الحديث. ولتحديد زمن بدء انتشار هذا الفن الحديث يبدأ مع الانطباعية وأنه لم تتوضح انطلاقته الرئيسية إلا في بداية القرن العشرين، بل في السنوات العشر التي سبقت الحرب العالمية الأولى.

مميزات الفن الحديث:

1– حصول الفنان على حريته، فأصبح الصراع بين الذات والموضوع في الفن الحديث أكثر احتراماً و كانت الذات هي الغالبة.

2– غياب نقد الفنان. فأصبح الفن الحديث يعني الإبداع والابتكار فهو يرفض محاكاة الواقع كما يرفض اتباع الاصول القديمة، لم يعد الواقع جميلاً في ذاته بنظر الفنان وإنَّما هو جميل نتيجة التعبير الفني الممزوج بالحس الدقيق والخيال المطلق والابتكار الطريف.

3– الابتعاد عن سلطة الكنيسة، والملوك والأمراء، والطبقة المهيمنة اقتصاديًا، وجهاز الدولة. فأصبح يعبر عن تجربة ذاتية محضة دون الاهتمام بالمضمون الموضوعي.

4– ظهور الأساليب المختلفة الخاصة بكل فنان، وتوالي المعارض الشخصية والجماعية التي كانت قبل "صالون المرفوضات" حكرًا على معارض "الصالون" المختلطة الواسعة السنوية. فلم يعد الفن الحديث يعتمد على الاصول التقنية الي تحد من طرائق تعبيره فقد استخدم في تصويره

مواد غريبة منوّعة منها الورق والخشب والحديد كما اصبحت مادة النحت أحياناً من القضبان المعدنيّة ونفايات الآلات.

5– ظهر العديد من الحركات الفنية المختلفة مثل الانطباعية، الوحشية، التعبيرية، السريالية، الدادائية، الباوهاوس، الفن البصري والفن الحركي والتجريد.

المصادر :

1– طوني بينيت وآخرون، مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم المصطلحات الثقافة والمجتمع، تر سعيد

2–الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربية للتوزيع بيروت،2010، ط1،ص276.

3– ديفيد هارفي، حالة ما بعد الحداثة، بحث في أصول التغيير الثقافي، تر محمد شيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،2005، ط1،ص418.

4– محمد بنيس، حداثة السؤال بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة، المركز الثقافي العربي، 1998 ، ط 2 ص 109.

5– آلان تورين، نقد الحداثة، تر أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، 1997 ، ص 122.

6– د.محمد الشيخ، نقد الحداثة في فكر هايدغر، الشبكة العربية للنشر، بيروت، 2008 ، ط 1، ص 3.

7– أحمد الحليم عطية، نيتشه وجذورها ما بعد حداثة، دار الفارابي، بيروت، 2010 ، ط 1، ص 2.